وتبقى مصر عظيمة برجالها ... رغم ألم الفراق

د. نادر رياض

لكل منا مثل أعلي في الحياة وقد تتعدد مناحي الحياة فيتعدد معها الشخصيات التي يتخذها الإنسان مثلا أعلي فيختص أحدهم بفلسفة الحياة وأخلاقياتها ويختص آخر بأن له مثلا اعلي في علوم الإدارة وتحريك الأفراد والأشياء والأموال في منظومة متناغمة وهكذا.

أما مثلي الأعلى الذي بصدد النقل عنه فهو قداسة البابا شنودة الثالث ذو الشخصية السمحة لا تخلو من المهابة نري في عينيها السمو والسماحة التي لا تخلو من الحزم والانضباط سواء كان ذلك علي جانب الذات أو جانب المتعاملين معه، وعن هذه الشخصية الكريمة الجميلة العميقة المحتوي والمضمون والتي تقع مني بمنزلة الأب الروحي انقل عنه هذا الدرس الذي اثري جانبا من حياتي في تعاملاتي مع الآخر، حيث استوعبت هذه الرؤية منذ حداثة تعاملي مع الآخر سواء علي مستوي خذ وهات أو خذ بس أو هات وخذ بعدين، حيث اختصت هذه الرؤية الفلسفية في التعامل بالأفعال ومردودها وحسابات ذلك وأثرها علي الحياة التي هي من هذا المنظور أفعال وردود أفعال من قبل ومن بعد. تقول قوانين الطبيعة التي تعلمناها مبكرا أن لكل فعل رد فعل مساويا له في المقدار ومضادا له في الاتجاه ، أما قوانين الحياة فقد تختلف دون أن تلغي النظرية، إذ أن في الحياة يكون كل فعل له رد فعل عنيفا كان أو خفيفا ، إنما هو رد للفعل حسب درجته وحكيم هو الإنسان الذي يحسب حسابا لرد الفعل قبل كل كلمة يقولها . ورد الفعل قد يتفق مع الفعل ذاته شكلا ومضمونا كقوانين الطبيعة وقد يختلف عن ذلك كلية كما نراه في تناقضات الحياة، فكم نري مثلا من قاتل قتل صديقه في لحظة تهور بسبب جنيه أو سيجاره اقترضها الصديق ورفض أن يردها فضاعت الصداقة وضاع معها المنطق وأهدرت الحياة دون ثمة علاقة بين الفعل ورد الفعل. وعلي العكس من ذلك فكم نري من رد كريم وفاضل لفعل الإحسان في موضع الإحسان مع من يستحق الإحسان يفوق قيمة الإحسان ذاته. فيتفق ذلك مع قول الشاعر أحسن إلي الناس تستعبد قلوبهم – فلطالما استعبد الإنسانَ إحسانُ – أما إذا قوبل الإحسان بنكران الجميل فان رد الفعل لنكران الجميل هو عدم استمرار الإحسان وكما قال احد الحكماء «ليست عطية بلا زيادة إلا التي بلا شكر».

وما قصص الانتقام أو الأخذ بالثأر – وبخاصة في صعيد مصر – إلا ردود أفعال: إن لم تكن في وقتها ، إلا أنها تأتي قطعا بعد حين. وإن لم تأت من الشخص نفسه فقد تأتي من أولاده أو أتباعه، سواء في مقتنياته، أو ما يجاوز ذلك.

وسياسة القمع التي مارسها الرجل الأبيض في إفريقيا السوداء . كم كانت من ردود فعل لها تجاوزت الزمان والمكان – بل وأتت بزعيم من السجن ليصبح أول حاكم اسود لجنوب إفريقيا وهو الزعيم مانديلا...

وكذلك من ردود الفعل لاستعمار كثير من دول إفريقيا بواسطة بلاد الغرب كان من نتائجها ظهور حركات استقلالية في أفريقيا نفضت عن كاهلها ذلك الاستعمار، وصارت تحكم نفسها بنفسها ... وفي الهند رأينا الفلسفة السلمية تنتصر علي الاستعمار البريطاني بكل أسلحة الفتك التي يملكها، وها هو زعيم مسالم متواضع يخرج منها لتحصل الهند علي يديه علي استقلالها وهو الزعيم المهاتما غاندي صاحب النظرية المتفردة القائمة على الكفاح ضد الاستعمار دون اللجوء للعنف والذي تطور بعد ذلك ليصبح «العصيان المدني ضد المستعمر» . لاشك أن التعالي علي الناس له رد فعله أيضا. وما الثورة الفرنسية الشهيرة في أواخر القرن الثامن عشر إلا دليل أكيد علي هذا الأمر، إذ غيرت الإمبراطورية الفرنسية تغييرا كاملا وأتت بشعار «الحرية والإخاء والمساواة » ثم كان لظلم روبسبير رد فعل أخر، ثم كانت دولة نابليون بونابرت وتطورت الأمور.

لذلك علي كل إنسان أن يعمل حسابا لكل فعل قبل أن يقدم عليه. ولكل قوله قبل أن يقولها لان أمرا واحدا قد تكون له ردود فعل متوالية خارج حساباته، ما أحوجنا جميعا للتدبر في أفعالنا واضعين نصب أعيننا ردود الأفعال علي اختلاف جوانبها مقيسة بمقياس التكلفة والعائد سواء علي مستوي الفرد أو المؤسسة أو المجتمع وفقط من خلال هذه النظرة يصبح كل منا أكثر فاعلية وأكثر ايجابية وأكثر نجاحا .

جريدة الاهرام (صفحة 10) 2012/3/24